مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

البنية الحية للجملة القرآنية وأثرها في صناعة الخطاب الأدبي: دراسة وصفية في ضوء التحليل التكويني

د.محمد بن عبد الله بن حسين الشدوي
أستاذ الأدب والبلاغة المشارك – قسم اللغة العربية
كلية العلوم والآداب بالمخواة – جامعة الباحة

DOI: 10.21608/qarts.2021.57989.1037

- تاريخ الاستلام:١٣ يناير ٢٠٢١ م
- تاريخ القبول:٢١ فبراير ٢٠٢١ م

مجلة كلية الآداب بقنا – العدد 52 (الجزء الثاني) لسنة 2021

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X
الترقيم الدولي الموحد للنسخة الالكترونية ISSN: 1110-709X
موقع المجلة الالكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

البنية الحية للجملة القرآنية وأثرها في صناعة الخطاب الأدبي: دراسة وصفية في ضوء التحليل التكويني

د.محمد بن عبد الله بن حسين الشدوي
أستاذ الأدب والبلاغة المشارك – قسم اللغة العربية كلية العلوم والآداب بالمخواة – جامعة الباحة
m.3.algh@gmail.com

الملخص العربي:

البنية الحيّة للجملة العربية تعني بها الدراسة هنا ما تضيفه البنية الإيقاعية على مستوى : الصوت المفرد والكلمة المفردة ، والتركيب من معلومات ومعارف وصور فنية جديدة من خلال مكونات الجملة العربية المتمثلة في : تخيُّرُ الأصوات ، وتخيُّرُ الألفاظ ، وتخيُّرُ التراكيب الأسلوبية .

ولمّا كان القرآن الكريم أعلى مراتب الخطاب العالي رأت الدراسة أن تكون البنية الحية للجملة القرآنية أنموذجًا عاليًا يتعلم منه الأدباء والشعراء ، ويقتدون به كيف يبنون نصوصهم الإبداعية بناءً فنيًّا ذات بنية حيَّة في حروفها وكلماتها وجملها المتنوعة التراكيب والأساليب التعبيرية منذ أن يدرك الإنسان المبدع بحواسه ، ثم ما يطرأ في داخله الشعوري والفكري من تفاعلات نتيجة عملية التأثر والتأثير ورصد التحولات والتغيرات في حياته وحياة المجتمع الذي يعيش فيه باعتبار العمل الإبداعي هو الأعمق تعبيرًا عن التحول أو التغير ، وكيف يخرج ذلك العمل الأدبي في صوت لغوي ينتظمه خيط شعوري فكري في مفردات وتراكيب ذات بنية حية يتشكّل منها النص الإبداعي شكلاً ومضمونًا إلى الدرجة التي يصبح معها النص الإبداعي في قالبه الفني ذا مستويات ذاتية واجتماعية وإنسانية كونية تشبه إلى حدٍّ بعيد طبقات الأرض جيولوجيًّا والتي لا بد لفهمها وتقويمها من الإحاطة بها في كليتها وشمولها ، وفي أجزائها وتفاصيلها ، والقرآن الكريم خير من يعلِّمنا ذلك .

الكلمات المفتاحية: البنية؛ القرآن؛ الخطاب.

مقدمة:

الحمد لله الذي علّم بالقلم ، علَّم الإنسان مالم يعلم ، والصلاة والسلام على النبي الأكرم محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم أما بعد :

فهذه دراسة بحثية بعنوان (البنية الحية الإعجازية للجملة القرآنية وأثرها في صناعة الخطاب الأدبي) دراسة وصفية تحليلية للبنية الحية للجملة العربية في ضوء البنية الحية للجملة القرآنية باعتبارها الأنموذج العالي الذي يعلِّمنا القرآن الكريم من خلاله كيف نبني العمل الإبداعي بناءً إيقاعيًّا يراعي مكونات بنية الجملة العربية الحية على مستوى : الصوت المفرد ، الكلمة المفردة ، التركيب ؛ حيث يعلِّمنا القرآن الكريم كيف نبني جملةً عربية حية من حيث : انتقاء الأصوات ، وانتقاء الألفاظ ، وانتقاء التراكيب الأسلوبية في صورة تجعل المتلقي يعيش جوَّ النص الإبداعي في صورة متجددة كلما كان المنتج للنص والمتلقي له على قدر كبير من تحليل تلك المستويات وفهمها على الدرجة التي يمكن أن يكون المتلقي طرفًا ناجحًا في عملية التأثر بالنص وفهمه ، ثم القدرة على الإنتاج الإبداعي من خلال النص الإبداعي الذي يحسن قراءته وتلقيه .

- **أهمية الموضوع : تكمن أهمية الموضوع في كونه يلفت أنظار الأدباء والشعراء إلى البنية الحية الإعجازية للجملة العربية القرآنية ، وكيف نتعلّم منها صناعة الخطاب العالي ذي البنية اللغوية الحية .**
- **أسباب اختيار الموضوع : الرغبة في كشف جوانب البنية الحية للجملة القرآنية ، والاستفادة منها في بناء الخطاب اللغوي العالي .**
- **هدف البحث : يهدف هذا البحث إلى تتبع مكونات البنية الحية الإعجازية للجملة القرآنية ، وكيفية بناء جملة عربية حية للوصول إلى صناعة خطاب عربي عالٍ .**
- **منهج البحث : اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي الذي يهتم بتحليل الظاهرة الإبداعية اللغوية البلاغية ، ووصفها ، ومحاولة تطبيقها للوصول ولو إلى تحقيق شيء قليل من النمط القرآني العالي لعلنا نستفيد منه في صناعة خطاب عربي عالي المستوى .**
- **الدراسات السابقة : لا توجد – حسب علمي – دراسات سابقة تناولت الموضوع بصورة تفصيلية .**

- **مشكلة البحث : عالجت الدراسة جوانب ، ومستويات البنية الحية الإعجازية للجملة القرآنية ، وما يمكن أن تحدثه من أثر إيجابي في بناء جملة الخطاب العربي العالي .**

ومن يقرأ القرآن الكريم بتدبر يجد فيه أن الله يعلمنا كيف نحس بما حولنا ، ونعقل ما يقع في حواسنا الخمس المعروفة – السمع ، والبصر، والشم ، واللمس ، والتذوق – وغيرها من الحواس الأخرى التي إذا تتبعناها في كتاب الله لوجدناها تزيد على أربع وأربعين حاسة منها : الحاسة البينية ، والعضلية ، والتوازن وغيرها ، ثم يتسرب كل ما ندركه بحواسنا إلى القوى الكبرى – العقل ، والقلب ، والنفس – التي قد جمعها الله في قرآنه بكلمة (الفؤاد) في قوله تعالى :﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولا ﴾ [الإسراء:٣٦] ، وأرى أن كلمة الفؤاد تضم القوى الكبرى جميعها ؛ لأن تخصيص الأفئدة تنبيه على فرط تأثير له . قال البرهان البقاعي: "وخص بالذكر لأنه ألطف ما في البدن، وأشده تألما بأدنى من الأذى، ولأنه منشأ العقائد الفاسدة، ومعدن حب المال الذي هو منشأ الفساد والضلال، وعنه تصدر الأفعال القبيحة."(١) .

كما أن الله يعلمنا بأن تحكيم النفس وحدها من التسويل من سوّل له أمرًا :أغراه به، حبَّبه إليه وسهّله له ، ولذلك قال تعالى على لسان السامري : ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ [طه:٩٦] ، مما يدل على قصور النفس في تقدير الأمور ومعرفة العواقب ، وفي الاعتماد على العقل وحده طيشٌ وسفه ، وفي الاعتماد على القلب وحده شغفٌ وانجراف وراء العواطف ؛ ولذلك أرى أن لفظة الفؤاد تجمع كل القوى الثلاث الكبرى لتكون أوعية متلازمة لتحليل كل مؤثر يأتي عبر الحواس المختلفة فإن اجتمعت القوى كلها في تحليل المؤثر استطاع الإنسان أن يتخذ حكمًا على درجة كبيرة من الاستيقان في نفس الإنسان أي : ذاته وكيانه الإنساني الآدمي الذي اختصه الله بالتفكر والتدبر، والإحساس والمشاعر .

ولكن .. بعد أن تحدث عملية التأثر تلك كيف تتم عملية نقل تلك المشاعر والأفكار في أسلوب لغوي تحمله طاقة الكلمة إلى المتلقي في خيط شعري فكري لغوي ينتظم تلك المشاعر والأفكار وينقلها بكل أمانة ووضوح ؟

في هذه الدراسة سنتعلم من القرآن الكريم لاعتباره النمط العالي للتعبير اللغوي كيف تتم تلك العملية ابتداءً من البنية الإيقاعية الحية على مستوى :

- الصوت المفرد .
- الكلمة المفردة .
- التركيب .

وكيف أن القرآن الكريم يعلمنا كيف نبني جملة عربية حية من ثلاثة محاور :

- صوت النفس .
- صوت العقل .
- صوت الحس .

وكل ذلك يجعلنا عالةً على الأسلوب القرآني الرفيع العالي الحي ، والصالح لكل زمان ومكان ، والذي يتجدد في معانيه وأساليبه كلما عاودنا قراءته وتدبره وفهمه .

وليس عيبًا أن نجعل الأسلوب القرآني أنموذجًا يحتذى من الكتاب والشعراء والمبدعين فقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قرآنًا يمشي على الأرض في قوله وفعله .

❖ هيكلة البحث : وقد جاءت هذه الدراسة على النحو التالي :

- مقدمة : وفيها إيضاح لأهمية الموضوع ، وجدوى البحث فيه .

المبحث الأول : البنية الإيقاعية الحية على مستوى :

- الصوت المفرد .
- الكلمة المفردة .
- التركيب .

المبحث الثاني : القرآن الكريم يعلمنا كيف نبني جملة عربية حية من حيث :

- صوت النفس.
- صوت العقل .
- صوت الحس .

- الخاتمة : وفيها ملخص بالدراسة ، وأبرز النتائج والتوصيات .

المبحث الأول : البنية الإيقاعية الحية على مستوى :

١. الصوت المفرد .

٢. الكلمة المفردة .

٣. التركيب .

الخطاب: من الألفاظ التي شاعت في حقل الدراسات اللغوية ولقيت إقبالاً واسعًا من قبل الدارسين والباحثين، فالخطاب ليس بالمصطلح الجديد ولكنه كيان متجدد يولد في كل زمن ولادة جديدة تنسجم وخصوصية المرحلة، وهو مفهوم لساني يمتد حضوره إلى النصوص المتعاليات من قرآن كريم ، وشعر، وعملٍ سردي ، وكذا في الدراسات الأجنبية ،حيث تمثل الأوديسة والإلياذة نماذج خطابات متفردة بغض النظر عن نوع الخطاب.

وقبل الولوج إلى دراسة البنية الإيقاعية الحية للجملة العربية ، وما يجب أن يكون عليه الخطاب الأدبي جدير بنا أولاً أن نعرف ما الخطاب الأدبي حيث نجد أنه " هو ما تؤديه اللغة عن أفكار الكاتب ومعتقداته ، فإنه لا بد من القول إن الخطاب يقومَ بين طرفين أحدهما مخاطِب وثانيهما مخاطَب، والخطاب عمومًا عبارة عن وحدات لغوية تتسم بـ – :

– التنضيد: ما يضمن العلاقة بين أجزاء الخطاب، مثل أدوات العطف وغيرها من روابط.

– التنسيق : مما يحتوي تفسير للعلائق بين الكلمات المعجمية..

– الانسجام: وهو ما يكون من علاقة بين عالم النص وعالم الواقع"[٢]

ومن خلال سمات الوحدة اللغوية السابقة نجد أن البنية الإيقاعية من أوائل البنى التي تقرع أسماعنا ، وتأخذ بألبابنا ، وتشتاق إليها نفوسنا ، ولذلك فإن القرآن الكريم من خلال بنية جملته الحية بهذا السمات يطالعنا في بنيته الحية للجملة على اعتبار أن الإيقاع أهم المستويات البانية للخطاب الأدبي ، وهو ذو تأثير بالغ في المتلقي ، وهذا ما جعل قريشًا تخرج من بيوتاتها رجالاً ونساءً ، وكبيرًا وصغيرًا عند سماع ذلك الإيقاع المؤثر الذي لم يعهدوه في خطبهم ، وأشعارهم .

والإيقاع في حقيقة الأمر عائدٌ إلى الطبيعة التي نعيش فيها ، ونتعامل معها ، فالكون كله يقوم على أساس من الإيقاع ، وإن لهذا الإيقاع تأثير في النفس ، ولذلك كانت الجملة القرآنية بإيقاعها الفريد مثالاً يقتدى به في بناء الجملة العربية الحية ذات الإيقاع الذي يعتبر أحد المكونات الأساسية في الخطاب القرآني ، والتي تسهم في إعطاء النص

القرآني جماليته سواءً في التعبير أو التصوير الفني ، وبناء الصورة الفنية القرآنية .
لقد اهتم القرآن الكريم بتعليمنا من خلال آياته الكريمة طرائق بناء التعبير اللساني ، ومن ثم معرفة القيمة التأثرية من ناحية جمالية ، ونفسية ، وعاطفية فهو في الحقيقة علمنا الأسلوب والأسلوبية في آنٍ واحد .

والقرآن الكريم قدّم لنا آليات قولية دينامية نعرف من خلالها كيف نصنع الكلام المؤثر ، وكيف نكشف عن القيمة التأثّريّة من ناحية جماليّة، ونفسيّة وعاطفيّة لهذا الكلام البليغ ، و دراسة ذلك التعبير اللسانيّ. ومدى تأثيره في النفس الإنسانية ، وكذلك العقل لأنه النص اللغوي العالي الذي يخاطب العقل والنفس معًا ومن أبرز تلك الآليات ما يلي :

- دينامية الصوت اللغوي المغاير في نغمه ، ونظمه ، ورسمه . في مثل : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّا ﴾[مريم:٤]
- دينامية (قل) التي تتصدر كثيرًا من السور والآيات ، وكأن الله يعلمنا كيف يجب أن نبني فكرًا وعاطفةً وتصوّرًا باللغة سواء لدى المتكلم أو المتلقي . مثل : " قل هو الله أحد " و " قل يا أيها الكافرون " .
- دينامية (الأساليب التشويقية المختلفة في عرض الموضوعات والأفكار والحوادث الماضية والآنية والمستقبلية) مثل : أسلوب الاستفهام ، النداء ، أفعال الأمر بصيغه القياسية الأربع ، النهي، التعجب ، ضرب الأمثال والأساليب القصصية المؤثرة)، وغيرها من الأساليب اللغوية المتنوعة التي يعلمنا القرآن من خلالها كيف نبني جملة حية ؟
- دينامية (قل ولا تقل) المتمثلة في العدول والاختيار للكلمة والتركيب ، وهذه محددات الأسلوب في الأسلوبية ، والتي توصل لها علماء اللغة لاحقًا ، إلا أن القرآن الكريم ارشدنا إليها منذ نزوله ، ومنها قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيم ﴾ [البقرة:١٠٤]
- دينامية الحركة النحوية الحية للتركيب اللغوي من أجل الإغراق في الذات الإنسانية من الوجهة النفسية والانطباعية (من تقديم وتأخير ، وحذف وذكر ، وإبدال ، وغير ذلك من أنواع العدول في الكلمة المفردة من ناحية ، والانزياح في التركيب من ناحية أخرى.

انظر مثلاً فيما أحدثه التبادل الوضعي بين ليت ولعل حيث استخدم القرآن الكريم لفظ (لعل) الدالة على إمكانية الحدوث مكان (ليت) الدالة على بعد المنال أو استحالته ، ولما كانت نفس فرعون الطاغية والجبارة والظانة بقدرة وصولها إلى هدفها أُستخدمت (لعل)

لتعكس لنا نفسية تلك الشخصية الجبارة التي لا تعترف بالعبودية لله تعالى .

ومن كل ما تقدم يظهر لنا كيف يبني القرآن الكريم فينا كيفية الأسلوب اللغوي المؤثر من ناحية ، ومن ناحية أخرى يعلمنا القرآن الكريم كيف نقوم بدراسة الخطاب الأدبي دراسة أسلوبية في ضوء منهج أسلوبي قرآني بعيدًا عن الأسلوبية الغربية في كثيرٍ من نقاط الاختلاف بينها وبين الأسلوبية العربية التي كشف علماء المسلمين كثيرًا من جوانبها عند البحث في أسرار الإعجاز في القرآن الكريم ، وبعيدًا عن كثيرٍ من المذاهب والآراء السقيمة التي بني عليها منهج الأسلوبية الغربية .

والبنية الإيقاعية من المكونات الأساسية في أسلوب القرآن الكريم، بل هي القالب الجلي لمكوناته الأسلوبية الأخرى، ممَا أضفى على أسلوبه عذوبة ملحوظة، جعلته متلوًّا ومسموعا ومتجددا ، لا يمل على كثرة ترداده عبر العصور.

وبما أنَ هذا الإيقاع العذب هو الأبرز في أسلوبه، فإنَ دراسته سوف تسهم في بيان طبيعة أسلوبه الفني المعتمد على هذه الخاصية الفنية المؤثرة والجذابة، مثلما سوف تسهم في تحديد الأطر الفنية والأسلوبية التي يتخذها هذا الإيقاع الجميل.

وهو ما يسعى إليه هذا المبحث بالتحليل والدرس.

وعند النظر في البنية الحية للجملة القرآنية نجد أن البنية الإيقاعية فيها يجب أن نتناولها بالدراسة في ضوء المستويات الثلاثة التالية :

١. البنية الحية الإيقاعية على مستوى الصوت المفرد :

أول ما يلفت الانتباه أن القرآن الكريم قد خلا من التنافر في بنية كلماته، فأصواته كلها قامت على الائتلاف، هذا من جانب، ومن جانب آخر سجلت كلمات القرآن الكريم قمة التناسق بين أصواتها والمعانى المرادة لها، وهذا هو الجديد فى الصوت القرآنى: أن يستخدم الصوت المفرد داخل الكلمة لخدمة المعنى المقصود، وإليك هذه الأمثلة:

أ. التناسب بين صفات الصوت ومعنى الكلمة ، ومن ذلك :

- التشديد بعد قلب التاء من جنس ما بعدها فى كلمة (تدارك) ليدل على التردِّى الجماعي،أو على المبالغة فى التثاقل أو الاستعصاء على الهدى، من ذلك قوله تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَآ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا ﴾[الأعراف:٣٨] ، وأصل الفعل (تداركوا) وقلبت التاء دالاً وأدغمت فى الدال، فلما سُكِّنت جىء بهمزة الوصل، والتشديد يوحي هنا

بتداعيهم فى النار متزاحمين بغير نظام، بل إن اشتمال التشديد على سكون فحركة يدل على أن تزاحمهم فى النار جعل بعضهم يعوق بعضًا قبل أن يتردَّوْا فيها .

- ومثله إيحاء التكرار فى قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾[الشعراء:٩٤] ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[فاطر:٣٧] فشدة ارتفاع أصوات أهل النار بالصراخ ومشاركتهم جميعًا فيه، وتكرار ذلك منهم لايكفى أن يُعبَّر عنه بالفعل المجرد (يصرخون)، لذا جاءت تاء الافتعال لتدل على المبالغة، وقصد لها أن تجاور الصاد المطبقة لتتحول بالمجاورة إلى التفخيم (لتصبح طاء)، فيكون فى تفخيمها قوة مبالغة فى الفعل.

وهناك صوت النون الذي ذكرها القدماء مع الميم واللام والراء في الأصوات الذلقية. وهذا الصوت يأتي كما ورد في سورة (ص) مثلاً ذا وضوحٍ سمعي مميز في الآيات ليزيدها وضوحاً ورنيناً، فعلى مستوى الإيقاع لا شك أنّه يعمل رنّة تحدث قوة إسماع، حاملة ترديداً زمنياً طويلاً[٣]بالإضافة إلى صوت الغنّة الموسيقي في هذا الحرف وليست الغنة إلا إطالة صوت النون مع تردد موسيقى محبب فيها. ولنتأمل كيف تجلت هذه الخصائص الموسيقية لصوت النون[٤] في قوله تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وقوله سبحانه: وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ فقد نشأ عن تردد هذا الصوت نوع من الموسيقى ترتاح إليه الأذن وتميل إليه. ونلحظ وضوحاً صوتياً شديداً ورنيناً مدوياً في أكثر الآيات التي يشيع فيها صوت النون، وذلك يضاعف من قوّة إسماع الكلمات، ويجعل للآية إيقاعاً حاسماً جلياً يتواءم مع جلاء معناها، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ ، ونجد لصوت الغنّة إيقاعاً حانياً يتواءم مع الحنّو من لدن الله الممنوح لإبليس الذي أراد منه الإنظار إلى يوم القيامة مع أنه خالف الله تعالى في سجدة لآدم عليه السلام .

ويبرز صوت النون في مقام التهديد، وفي سياق الوعيد، فيزيد من حدّتهما ويضاعف من وقعهما على النفوس ويساهم مع أصوات أخرى في التعبير عن الغضب المجلجل، كما في قوله تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ، فقد كان لصوت النون رنين ووقع يصمّان الآذان من شدتهما، ويزلزلان النفوس، حيث يقسم الخالق أنه سيملأ جهنم من إبليس ومن اتبعه. وكذلك الأمر في الآية الأخيرة في السورة: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾

[ص٣٨/٨٨]

ب. التناسق بين إيحاء الصوت ومعنى الكلمة :

ومن التناسب بين إيحاء الصوت والدلالة المقصودة للكلمة قوله تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾ [الإنسان:١٩] حيث يوحى لفظ السلسبيل بالسلاسة والسهولة ويسر الاستساغة، وذلك لما بين اللفظين (سلسبيل / سلاسة) من شركة في بعض الحروف.

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ [النبأ:٢٥] نجد مادة (غسق) فى القرآن، منها: الغسق، والغاسق والغسّاق . توحى أن القسط المشترك بين هذه المشتقات: الدلالة على أمور كريهة؛ فالغسق: الظلمة والغاسق: الليل الشديد الظلمة، والغسَّاق: شيء كريه لا يشرب، وفسروه بالصديد، وتستفاد هذه الدلالة لغويًّا من إيحاء الغين والقاف هنا. ومثله فى التفسير قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ [الغاشية:٦] ، والضريع: نبات شوكي وإيحاء لفظ " ضريع" فى الطعام يفيد ذلاً يؤدي إلى تضرع كل منهم وسؤال الله العفو عن ذلك.

ج. المناسبة والتناسق بين نوع الحركة والمعنى :

مثاله قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[فاطر:٢] ، وبتأمل حركة الكاف فى كلمة "يمسك" فى الآية نجد أن السكون في الثانية موافق لمعنى الإمساك لما بها من إغلاق وعدم حركة، في حين أن الأولى "ممسك" مفتوحة، وهى مناسبة لمعنى الفتح.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[القصص:٤] ن والتشديد فى (يُذَبِّح) فيه دلالة على الكثرة والعنف في حدث الذبح. ولذلك جاءت على التشديد بدلاً من (يَذْبَح) بدون تشديد.

وقد استفاد الأدباء والشعراء كثيرًا من هذا التوجيه القرآني في الاستعمال اللغوي الأدبي للصوت المفرد في جميع أحواله ، ولقد استفاد الأدباء والشعراء من القرآن الكريم كثيرًا لأنهم نظروا إلى ما للتشكل الصوتي على اختلاف مستوياته من أثر كبير في الخطاب الأدبي لأنه عملية قوم على التأمل من أجل اكتناه المعاني المعقدة ، وصورها الكامنة في تلك الأصوات .

٢. البنية الحية الإيقاعية على مستوى الكلمة المفردة :

لقد علّمنا القرآن الكريم أيضًا البنية الحية الإيقاعية على مستوى الكلمة المفردة في

الجملة القرآنية حيث لا نجد في العربية كلمة متطابقة في مخارجها وصفاتها وحركاتها، وهذا التنويع في بناء الحروف يحقق وحدة صوتية متناغمة ومنسجمة، يكسب الكلمة قيمة جمالية من خلال جرسها المميز.

ومن الانسجام والتناسق بين الحروف مخرجا وصفة وحركة، تتكون إيقاعية الكلمة وموسيقاها وهذه الإيقاعية مرتبطة بأداء المعنى، ولا تنفصل عنه وقد بلغ القرآن حد الإعجاز في الإيقاع الموسيقي لكلماته الدالة على المعنى الديني، وذلك في نسبه الموزعة على الأنساق التعبيرية، وفي تناسبه مع الحالات والمعاني والمواقف وفي نظامه البديع المعتمد على نظام العلاقات ، ومعاودة هذه الإيقاعية وتكرارها لأداء المعاني الدينية.

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَاما فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَال فِيهَا مِنۢ بَرَد فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور:٤٣]

فكلمة (يزجي) بجرسها الموسيقي ترسم حركة السحاب البطيئة في السماء، وما فيها من امتدادات رخية متطاولة ، بخلاف ما لو استعمل كلمة (يسوق) فكلمة "يزجي" تبدأ بالياء ، وتختم بالياء أيضا، والياء حرف لين رخو، ولكن الزاي حرف من حروف الصفير والجهر، والجيم من حروف الشدة والجهر، ولكن تركيب الجيم في الكلمة بين الزاي والياء ، وحركة الكسر عليها خففت من شدتها ، وجعلتها متناسقة مع ما قبلها وما بعدها، فهذه الكلمة بتوزيع حروفها من حيث المخارج والصفات ، وتنويع حركاتها وتأليفها من مقطعين "يز"و"جي" جعل إيقاعها رخيًّا ممتدًا كرخاوة حركة السحاب، وامتداده في السماء.

وترتبط موسيقا الحروف هذه بما فيها من علاقات متشابكة، وصفاتها ، وحركاتها بنظام تكوين الكلمة المفردة، وهو نظام أكبر من نظام تآلف الحروف وانسجامها.

ونظام المفردات في العربية، متميز عن سائر اللغات في العالم يضاف إلى ما قلناه عن ميزة العربية في حروفها وتفوقها بها على سائر اللغات من حيث استيفاؤها لجهاز النطق الإنساني ونظام الصفات الصوتية، ونظام الحركات في تكوين حروفها وهذا يدل على غناها في التوقيعات الصوتية أو النغمات الموسيقية الصادرة عنها.

وما يقال عن تكوين الحروف يقال أيضا عن تكوين الكلمات، لأن الناحية الموسيقية في مفردات العربية ظاهرة (كظهورها في الحروف المتفرقة أو أظهر ، لأنها تضيف الموسيقية في القواعد والموسيقية في المعاني إلى الموسيقية الملحوظة في مجرد النطق أو السماع

بغير معنى يتم به التخاطب بين المتكلمين)[٥] ، كما يقول العقاد الذي يرى أن المفردات العربية تعتمد في تركيبها الفني على (الوزن) فهو قوام التفرقة بين أقسام الكلام في العربية ، فالفرق بين الكلمة ومشتقاتها هو فرق بين أفعال وأسماء وصفات وأفراد وجموع ، وهو كله قائم على الفرق بين وزن ووزن وقياس صوتي، وقياس مثله إنه يتوقف على اختلاف الحركات والنبرات أي على اختلاف النغمة الموسيقية في الأداء كما يقول العقاد .

وقد استغل القرآن الكريم هذه السمة الفنية في العربية في إثراء تعبيره وتصويره للإيحاء بالمعاني الغزيرة من خلال إيقاعية وزن الكلمات، وحركاتها ، ومن الأمثلة لذلك : قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨] ، فلفظة "اثاقلتم" توحي بالثقل من خلال وزنها على عكس كلمة (تثاقلتم) التي توحي بالخفة، لاختلاف الوزن بين الكلمتين.

والقرآن هنا يستثمر هذه الخاصية في اللغة العربية، في رسم صورة المتثاقل عن الجهاد، وشدة الروابط الأرضية التي تشده للقعود وعدم الخروج، كما أن الكلمة ترسم هيئة المتثاقل، والحركة المتدرجة له في القعود عن الجهاد، حتى ينتهي به إلى التشبث بالحياة بقسوة وعنف كقوة المقطع الأخير (تم) في كلمة (اثاقلتم).

فإيقاع الكلمة يرسم المعنى المراد بكل تفصيلاته هيئة، وحركةً، وصوتاً، وهذا منتهى التعبير الإيقاعي المعجز.

ولفظ (دمدم) في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤] فيه إيقاع شديد يناسب جو التدمير لقوم ثمود، فاللفظة من مقطعين (دم/ دم) أو من مقطع متكرر للإيحاء بجو التدمير بما فيه من أحداث متكررة حتى يتحقق التدمير الكامل في نهاية التصوير.

وتطويل الإيقاع في بعض الكلمات القرآنية، يكون مقصودا، لاستيفاء المعنى المصور وذلك باستنفاد ما في الكلمة من طاقات تعبيرية وتصويرية للدلالة على المعنى بالإضافة إلى أن مد الإيقاع أو تطويله يزيد من زمن عرض الصورة أمام العيون، فتتملاها وتتابع دقائقها ، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ

أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود:٢٨]

وقد قام "الرافعي "[٦] بتحليل هذه الظاهرة الإيقاعية في المفردات القرآنية تحليلا صوتيا ضمن نظام العلاقات بين الحروف مخرجا وصفة وحركة، مما أكسب هذه الألفاظ الطويلة في بنائها حلاوة وفصاحة، فكلمة (أنلزمكموها) بإيقاعها الموسيقي توحي بالإكراه أو الثقل المناسب لمعنى رفض الكافرين للآيات، ونطق الكلمة يرسم هذا الاستكراه للآيات، واستثقال الكافرين لها، كما هو مستكره ثقيل في إيقاع اللفظ نفسه، وهكذا يمكن أن نتلمس المعاني الدينية من خلال بناء "الإيقاعية" في أسلوب القرآن.

وأحيانا يرق الإيقاع ويلين، وأحيانا يشتد ويعنف، فكلمة (نَهَر) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴾ [القمر:٥٤] ذات جرس ناعم هادئ تناسب المعاني المرسومة في ذلك المكان الهادئ الآمن المهيب ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر:٥٥] وقد يشتد إيقاع اللفظ ويقوى للإيحاء بحركة النهر وتفجره الدائم ، وديمومة جريانه كما في قوله تعالى : ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ [الكهف:٣٣] ، وهذا ورد في سياق الحديث عن عظمة قدرة الله على تفجير الأنهار ، ثم انظر التناسب العجيب بين فعل (فجّرنا) المضعّف ، والمسند إلى العظَمَة الإلهية ، وقدرة الله تعالى على تفجير النهر وجعله يجري في صورة دائمة .

كما يشتد اللفظ ويقوى بالمعنى الشديد كالتعبير عن يوم القيامة بـ (الحاقة ، والصاخة) وغير ذلك. وكلها ألفاظ شديدة الوقع على الأذن قوية الجرس تناسب أهوال القيامة وشدائدها، وهذه القوة في الإيقاع متولدة من بناء الكلمة المعتمد على حرف ممدود بالألف (حا- صا- طا) ثم إيقاع الحرف الممدود على حرف مشدد، بعد هذا الارتفاع في حركة المد، فهذا الوقوع على الحرف المشدد يزيد من شدة الإيقاع وقوته، ثم وجود التاء في نهاية اللفظ، والتي تنطق هاء ساكنة عند الوقف توحي بانتهاء الشدة عند السكون الملحوظ في نهاية اللفظة (الحاقة- الصاخة- الطامة) ، وهذا يعني أن الجرس اللفظي يرتبط أيضا "بالمدود" بالإضافة إلى حركات الحروف ومخارجها وصفاتها، ومن مجموع هذه العلاقات المتناسقة وغيرها في اللفظ الواحد يتألف الإيقاع اللفظي الخارجي بالإضافة إلى إيقاعه الداخلي المرتبط بالمعنى.كما في ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣] فالفعل (راود) من المراودة وهي المطالبة برفق ولين بستر ما تريده ممَّن تريده ، فإن كان الأمر مسهّلاً فالمراودة تنتهي

إلى شيء ما ، وإن تأبّى الطرف الثاني بعد أن عرف المراد ؛ فلن تنتهي المراودة إلى الشيء الذي كنتَ تصبو إليه ، وهكذا راودت امرأة العزيز يوسف عليه السلام : أي طالبته برفق ولين في أسلوب يخدعه ليخرجه عمت هو فيه إلى ما تطلبه ، كما أن المد في (راودته) والضمير (الهاء) في آخره، يوحي بالعاطفة المحمومة المتعبة التي فقدت القدرة على الاحتمال، فراحت تطلب وتلح وتكرر ثم الفعل (غلّقت) بجرسه الشديد يوحي بإحكام إغلاق الأبواب بشدة وعنف لاستكمال بناء الصورة الفنية، والإيحاء بحالة المرأة المحمومة، وكأننا نسمع صدى الأبواب المغلقة من إيقاع اللفظ (غلّقت)، ثم تلاشي الصدى بعد ذلك في أنحاء المكان، وهذا المعنى لا يكون فيما لو قال: (أغْلقت)، فهو أخف إيقاعاً من (غلقت)، كما أن فعل (أغلقت) يوحي بالهدوء والاستقرار بينما الموقف هائج ومضطرب.

ثم يأتي إيقاع (هَيْتَ لك) الهادئ الناعم، ليكمل تصوير المشهد بكل ما فيه من أصوات ونعومة وإغراء، كنعومة هذا التعبير (هيت لك) ورقته.

وبذلك يكتمل بناء الصورة من خلال مادتها اللغوية المتنوعة في دلالتها والمتنوعة في إيقاعاتها، للدلالة على المعاني والحالات النفسية والمواقف الإنسانية.

٣. البنية الإيقاعية الحية على مستوى التركيب :

إن الخطاب القرآني في بنيته الإيقاعية الحية يعلِّمنا أن نسمع ما لا يسمعه الآخرون ، ونرى ما لا يراه الآخرون ، ومعنى هذا أن نكون عند تلقي الخطاب القرآني نملك التذوق الفني الجمالي الذي " يتم بأساليب مختلفة كل منها يناسب جانبًا معيَّنًا يدعم حاسة التذوق ، وارتباط ذلك بالمتعة الجمالية وعلينا العودة إليها مرات لرؤية ما لم يُرَ من قبل على ضوء التوسع في الفهم الجمالي فليست غاية التجربة الجمالية هي أن تكون أوسع معرفةً ، بل أن تكون أعمق ، وأشد إرهافًا لأنها أوسع معرفة "[٧] ، ولذلك نجد أن النبي عليه السلام اختار لكتابة القرآن الكريم كُتّابًا يثق في عبقريتهم التي جعلتهم يكتبونه بالرسم العثماني الذي استطاع تمثيل الظواهر الصوتية أحسن تمثيل ، ويتماشى مع أوجه القراءات المتنوعة لأن " في خط المصحف عجائب وغرائب تحيرت فيها عقول العقلاء ، وعجزت عنها آراء الرجال البلغاء ، وكما أن لفظ القرآن معجز فكذلك رسمه خارج عن طوق البشر "[٨] ، وما ذلك إلا لكونه يحمل إيقاع البنية للجملة القرآنية في مفرداته وتراكيبه ، ويجدر به أن يكون حاملاً يتسع لتلك البنية الحية العجيبة .

أما عن البنية الإيقاعية الحية في التركيب فإنها "حين تتجمع الكلمات في الجمل، وفي العبارات، تكتسب جرسا موسيقيا آخر، زيادة على ما كان لها من موسيقى فردية "[٩] لأن إيقاع الألفاظ لا تتضح معالمه إلا ضمن السياق الذي يحدد قيمته الفنية والجمالية، وبالتالي فإن تناغم الإيقاع اللفظي بعضه مع بعض ثم مع الصور و الظلال والمعاني والأفكار يكسب التعبير إيقاعا معينا، يعمق الإحساس بالمعنى، من خلال دخوله إلى النفس من منافذ شتى.

ويمتد نظام العلاقات السياقية ليشمل نظام "الفواصل القرآنية" التي تعتمد على "التنويع" في صياغتها ولا تأتي على نسق واحد. فمنها الطويلة، والمتوسطة، ومنها القصيرة ، يكون ذلك التنويع بحسب ما تقتضيه موضوعات ومعاني وإيقاع السور القرآنية ، وحتى في السورة الواحدة غالبا تبتعد الفاصلة القرآنية عن مظنة السجع المعتمد على النظام الموحد في حركة حرفه الأخير ، وبهذا يكون القرآن الكريم لا بقول شاعر ، ولا بقول كاهن كما زعم المشركون ، وإنما هو كلام رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وقد أكد "الرماني" قديما على الفارق بين الفاصلة والسجع، بقوله: "الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، توجب حسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك لأن الفواصل تابعة للمعاني وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها "[١٠]

لقد أكسبت الفواصل النص القرآني نغما موسيقيا مؤثرا يزيد في إبراز المعاني ويقويها. لهذا كان للقرآن الكريم هذا الجمال الصوتي المؤثر كما يقول علماء الجمال اليوم في الإحساس الصوتي بالجمال، لأن الجمال الصوتي– كما يقول الدكتور محمد زغلول سلام – يعتمد " على انسجام الأنغام في تردد رتيب لا تمله الأذان، غير نشاز، فتنفر منه الآذان، وتتأذى به، متسق مع ما ينبعث في النفس من هزات داخلية، فيتم التوافق بين النغم الخارجي والداخلي" [١١].

ففي قوله تعالى:﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾[النمل: ٨٠]

قد تبدو الفاصلة هنا "مدبرين" زائدة، ذكرت لمراعاة النسق الموسيقي دون معنى، لأن قوله (ولّوْا) تدل عليها ، ولكن التأمل في المعنى بشكل دقيق، يظهر أن الفاصلة (مدبرين) توحي بالإعراض الكلي عن سماع الحق ، وكلمة (ولوا) لا تدل على ذلك لأن التولي قد يكون بجانب دون الآخر ، فيتولى بوجهه مثلا وهو يسمع بأذنيه، ولكن هؤلاء الكافرين أعرضوا

كليا عن سماع خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم، بل إنهم أتبعوا الإعراض عنه بحركة الإدبار الموحية بالازدراء والاستخفاف، فالفاصلة هنا تتمم المعنى المراد تصويره وتجعله توليا بالكلية، كما أنها تضيف إلى المعنى صورة ساخرة مضحكة فيها تحقير لهؤلاء المعرضين عن الهدى بحركة الإدبار المشينة.

وإذا انتقلنا إلى علاقة أسلوبية، تعبيرية، وتصويرية أخرى نلاحظ نمو الحركة التركيبية السياقية في النص القرآني، لتكوين "وحدة إيقاعية" في مستواها الخارجي والداخلي، وذلك من خلال وحدة التصوير والتعبير ونضرب مثالا على ذلك بقوله تعالى:﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة:١٧]

ففي هذه الآيات تتضافر الروابط التعبيرية والإيقاعية والتصويرية في "تعتيم الصورة" ورسم كثافة الظلام فيها حتى تتناسق مع صورة المنافقين المظلمة، لذلك ابتدأ الإيقاع بتكرار الكلمة (مثل) ثم جيء بالاسم الموصول المعرّف بصلته وليس بذاته، ثم جيء بالفعل (استوقد) بهذه الصيغة المتضمنة لحروف الزيادة للطلب وما يكشف وراءه من نفوس قلقة معتمة تبحث عن ضياء. ثم جيء بكلمة (نارا) بالتنكير للدلالة على أي إنارة ولو كانت قليلة، ثم كلمة (فلمّا) فيها معنى المفاجأة والسرعة، ثم إسناد ذهاب النور إلى الله، واستخدام كلمة (بنورهم)بدلا من ضوئهم. وجمع (ظلمات) وأتبعها بالفاصلة (لا يبصرون) المتناسقة مع سياق التصوير. فهذه الإيقاعية في الآيات، منبعثة من الظواهر التعبيرية والتصويرية، لرسم صورة مظلمة محسوسة ملائمة لظلمة نفوس المنافقين، حتى إن هذه الظلمة، وصلت ذروتها حين أفقدتهم الرؤية الصحيحة ، فتعطلت حواسهم (صم بكم عمي) فلا رجعة لهم بعد ذلك إلى الحق، وانقطع الأمل منهم (فهم لا يرجعون).

وفي قوله تعالى في المثل الثاني له مباشرة : ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:١٩]

تجسيم للحركة الإيقاعية الداخلية للمنافقين بحركة إيقاعية خارجية تمثلت في الصيّب النازل والرعد الهادر، والبرق الخاطف، وحركة الأصابع في الآذان، وحركة الفزع المتحفزة للإفلات كلما سنحت الفرصة.

وإيقاع كلمة (صيّب) يوحي بالانصباب الشديد عليهم، وزيادة في استحضار الصورة وشخوصها في الآذان جاء قوله (من السماء) ثم قوله (يجعلون أصابعهم في آذانهم) تتناسق مع جو الرعد القاصف والبرق الخاطف، والموت الماحق.

وإذا طبقنا دراسة البنية الإيقاعية بمستوييها الخارجي والداخلي على سورة "العاديات" نجد أن السورة تبدأ بمطلع واحد، تجتمع فيه عناصر التصوير من حركة ولون وإيقاع في وحدة فنية منسجمة .

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا﴾[العاديات:١-٥] نلاحظ أن الإيقاع فيه شديد وسريع يلائم جو السورة وموضوعها، ويبنى الإيقاع أولا من الألفاظ المشتقة على وزن (اسم الفاعل) (العاديات- فالموريات- فالمغيرات) لما فيها من المدود الملائمة لتصوير الخيول في عدوها حركة وهيئة مع ملاحظة التوازن في التراكيب اللغوية (العاديات ضبحا- فالموريات قدحا – فالمغيرات صبحا)، وانتهاء التركيب اللغوي بفواصل موزونة بوزن واحد، (ضبحا- قدحا- صبحا). مع إبراز حرف الحاء المتكرر الملائم لحمحمات الخيول الضابحة.

فحركة الإيقاع تبدأ ممتدة في أقصى درجات السرعة، لترسم المسافات أو مساحات التصوير وذلك بتكرار الممدود عبر الألفات التي توحي بالخفة و الانطلاق، وكأننا نرى صورة الخيول المسرعة ثم يشتد الإيقاع ويقترب لنسمع حمحمات الخيول الضابحة بعد أن رأينا صورتها العادية .

ويستمر التعبير الفني في(تسريع) الإيقاع في قوله: (فأثرن به نقعا، فوسطن به جمعا)، بالاعتماد على الفعلين (فأثرن/فوسطن) والفاصلتين اللتين على وزن واحد وروي واحد (نقعا/جمعا) وتقديم الجار والمجرور(به) على المفعولين في الجملتين، حتى أصبحت الجملتان متعاونتين لفظا وتركيبا وإيقاعا لتحقيق التأثير المنشود.

وهكذا ...

نرى أن البنية الحية للجملة القرآنية بالفعل حية في حروفها وكلماتها، وسياقها التركيبي والتصويري في نمط لغوي عالٍ يمكننا تخيله على الشكل الذي تمثله الخطاطة التالية:

اللفظ .... المعنى .... الأسلوب .... الإبداع اللغوي الخطابي.

وأن ذلك التكوين أساسه البنية الحية للمفردة ضمن السياق اللغوي الذي قد تتكرر فيه المفردة القرآنية في أكثر من موضع فنظن ذلك تكرارًا، وليس التكرار منها في شيء أبدًا ، وإنما في

كل مرة ترد فيها الكلمة القرآنية في سياق جديد يضيف لنا معنى جديدًا ، ونكتفي بشاهد واحد لبيان الأمر .

فكلمة (الجنة) في القرآن الكريم ترد كثيرًا لكنها في كل مرة تضيف لنا معرفة ومعنى جديدًا فعلى سبيل المثال :

- ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:١٣٣]
- ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٥]
- ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة:٧٢]
- ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴾[الزُّخرُف:٧٠] ، تليها الآية :
- ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ ﴾ [الزُّخرُف:٧١]

ففي الآيات السابقة نجد كلمة (الجنة) ترد معها معلومة جديدة عن نعيم الجنة، وكلها صور تقريبية لنعيم الجنة تلك، إنما اللذات من قبيل ما أخبرنا به النبي عليه الصلاة والسلام قال الله عز وجل: " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مصداق ذلك في كتاب الله : فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون "[١٢] .

وفي المبحث الثاني من هذه الدراسة سنتناول كيف يعلمنا القرآن الكريم أن نبني جملة حيّة في نطاق قدرتنا البشرية متخذين الأسلوب القرآني منهجًا وقدوةً في ضوء :

(صوت النفس ، صوت العقل ، صوت الحس) .

كلُّ هذا ونحن نعلم علم اليقين بأن كلام الله تعالى لا يدانيه كلام البشر مهما بلغوا من الفصاحة والبلاغة ولكنه معين طيب من قول عالم الغيب والشهادة ، حفظ لنا لغتنا العربية ، وأساليبها ومفرداتها وأصواتها التي بهرت علماء اللغة ، كما وقف الأدباء والشعراء أمامها مشدوهين لذلك البيان العظيم.

المبحث الثاني: القرآن الكريم يعلمنا كيف نبني جملة عربية حية من حيث :

- **صوت النفس .**
- **صوت العقل .**
- **صوت الحس .**

إن الأدب السامي الرفيع عامل مهم من عوامل نهضة الأمة ، وعنصرٌ فعّال في توجيهها اتجاهًا قويمًا ، وفي تقدمها ، وازدهارها وسلامة نظرتها إلى الحياة والمجتمع ، ولقد " قام القرآن العظيم بدور بليغ عميق في اللغة العربية ، وأدبها وبلاغتها ، وفي النقد الأدبي عند العرب "(١٣) .

فبه تهذبت ألفاظها ، وتجددت في معانيها ، ونصب القرآن للأدباء المثل البلاغي الأسمى حتى نهجت الآثار الأدبية نهجه ، وازدانت بشواهد آياته ، رغم البون الشاسع بين بلاغته وبين بلاغة العرب من خطباء وشعراء وكُتّاب إلا أنه يظل المعين الصافي الدائم لكل من أراد التفنن في صناعة الخطاب .

ولقد مثّل النص القرآني الرفيع مساحة للتفاعل الكبير بين المنتج والمتلقي باعتباره الخطاب الرفيع الذي يهدي للتي أقوم من الأقوال والأفعال ، قال تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩] ، ولقد ركّب الله في الإنسان قدرات كفيلة بإنتاج خطاب مبين حيث يقول تعالى:﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد:٨-١٠].

وبذلك يمكننا أن نتخيل ثلاثة محاور للبنية الحية في الجملة القرآنية يمثلها الشكل التالي :

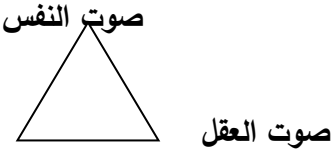

- **صوت النفس : هو " الصوت الموسيقي الذي يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها ، ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه ... "(١٤)**
- **صوت العقل : وهو " الصوت المعنوي الذي يكون من لطائف التركيب ، ومن الوجوه البيانية التي يداور بها المعنى لا يخطئ طريق النفس من أي الجهات انتحى إليها "(١٥).**

- صوت الحس : وهو " لا يكون إلا من دقة التصوير المعنوي ، والإبداع في تلوين الخطاب ... "[١٦]

وخلاصة القول في هذا المبحث هي أننا وجدنا أن البنية الحية للجملة القرآنية قد أودع الله فيها أسرارًا كثيرة تبدأ بسيمياء الحروف ، وهو " علم معاني الألفاظ الذي يبحث في العلاقة بين حروف الكلمة ودلالاتها "[١٧] ، ثم يأتي بعد ذلك سيمياء الخطاب البلاغي في أبعاده الثلاثة : البعد الدلالي والبعد التركيبي والبعد التداولي ، وهذه الأبعاد باعتبارها آليات لتحليل البنى المكونة للخطاب النصي انبعثت منها علاقات هي[١٨] :

- العلاقة بين الدلائل المختلفة على صعيد التركيب .
- العلاقة بين الرسالة والمرسل والمتلقي على صعيد التداول .
- العلاقة بين الرسالة والواقع على صعيد الدلالة .

ولذلك حرصت الدراسة على الكشف عن البنية الحية للجملة القرآنية في ضوء الأبعاد السابقة، ولكن بشيء من الدقة والبيان والتحليل اعتمادًا على التحليل الوصفي التكويني وهو " منهج في التحليل اللغوي يظهر كيف تكوّن العناصر اللغوية صوتية كانت ، أو مفردات ملامحها التكوينية "[١٩] ، ومن خلال هذا المنهج تمكنت الدراسة من كشف جوانب كثيرة للبنية الحية في الجملة العربية من الصوت إلى التركيب .

ومن أبرز ما علمناه القرآنُ الكريم في صناعة الخطاب تعليمنا كيف نبني جملة عربية ذات بنية حية ؛ حيث علّمنا عملية الانتقاء المحسوب لكل من : الأصوات ، والألفاظ ، والتركيب. ومن خلال الثلاثية السابقة ستطيع أن نتعلم عملية الانتقاء لكلٍّ مما يأتي:

١. انتقاء الأصوات: تتجلى في القرآن الكريم ظاهرة لغوية هي تجسيد المعنى من خلال الانتقاء الصوتي للمفردة؛ أي : اختيار ألفاظ يوحي صوتها بمعناها ، لتعالق طبيعة الصوت بدلالة الكلمة.

ومادة الصوت هي مظهر المعنى النفسي ، " على أن جمالية التصوير بالصوت في المفردة القرآنية لا تراعي تجسيم المعاني فحسب ، وإنما تراعي أيضًا تمام المراعاة ما للفظ من خصائص صوتية تتلاءم مع السياق الوارد فيه ؛ إذ يفضي السياق إلى استخدام لفظة بتشكيل صوتي معيَّن دون غيرها "[٢٠] ؛ مما يجعلنا نؤكد بأن لا مترادفات في اللغة العربية ، وأن لكل مفردة لغوية نبرتها الصوتية ، ومكانها السياقي التركيبي والتصويري بحيث إنه لا

يمكن أن تحل مفردة مكان أخرى ، فمثلاً في قوله تعالى :﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم:٢٢] تعني كلمة (ضيزى) الجور والظلم ، ولكن كلمة (جائرة) لا يمكن أن تحل محلها لاعتبارات صوتية وسياقية ، ولذلك تفرّد القرآن الكريم في أسلوبه السردي الإيقاعي بانتقاء الأصوات الدالة والمعبرة عن المعاني وتصويرها كما في قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾[النازعات:١٥-١٩]حيث نجد القصة وردت بإيقاع هادئ ورخيّ يتناسب مع الموقف .

واسمع إلى صوت الحرف في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ [المدَّثر:٣٤]

تجد أن صوت (إذ) في الآية الأولى يوحي بانقطاع الليل وانتهائه ، بينما صوت (إذا) يوحي المد بحرف اللف امتداد الحياة بميلاد يوم جديد مشرق .

وفي قوله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾[الشعراء:٩٤]تسمع للفعل (كبكبوا) تكريرًا في الحروف يوحي بتكرير عملية الانكباب نفسها كما قال الزجاج :" طرح بعضهم على بعض ، وقال اهل اللغة معناه هُوِّروا ، وحقيقة ذلك في اللغة تكرير الانكباب كأنه إذا ألقي ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها "[٢١] ، وما أن تسمع قوله تعالى : ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ ﴾[فاطر:٣٧] حتى تتحسس بكل حواسك صوت الفعل (يصطرخون) الذي دلّت كثرة حروفه على زيادة الحدث وفاعليته إذ شارك المضمون مشاركة واضحة ، وتلاقت جزئيات الصوت بالمعنى .

بينما تسمع صوتًا آخر ، وهو الصوت الدال على غرابة الموقف (تالله ، تفتؤا ، حرضًا)، وتعجب إخوة يوسف من فعلة أبيهم في قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ [يوسف:٨٥] ، واسمع إلى صوت جمال الصبر ، والثقة بالله ، والرجاء فيه ينساب على لسان يعقوب عليه السلام (صبر ، جميل ، الله المستعان ، عسى الله ، جميعًا) : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[يوسف:٨٣].

٢. انتقاء الألفاظ : حيث تميزت اللفظة القرآنية بالسمو ، والإيحاء بالمعنى كما نرى ذلك على سبيل المثال في قوله تعالى : ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[البقرة:٢٢٣]

حيث نجد لفظة (حرث) في الآية وردت في موضوع العلاقة الزوجية لتزيد من طاقة التفاعل مع النص بما لها من طرافة تثير الاهتمام ، وتلفت الانتباه إلى العلاقة الزوجية في صورة حسية ومعنوية جعلت من الزوجة تلك الأرض الطيبة التي يحرثها صاحبها فلا تنتج إلا طيبًا ، وفي قوله : وقدموا لأنفسكم واتقوا الله حث على التكاثر وطلب الولد الصالح مع حضور تقوى الله في السر والعلن بين المرء وزوجه .

كما أن لانتقاء الألفاظ دورًا كبيرًا في إعطاء الأسلوب السردي طابعًا إيقاعيًا يحكمه ذلك أن اختيار الألفاظ وفق أسلوب محدد يعطي الإيقاع تميزًا وانفرادًا كما هو الحال في قوله تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾[النمل:٢٢] فالتجاور بين كلمتي (سبأ ، نبأ) لتساويهما في حروفهما ، وتوازنهما في موسيقاهما يعطي توافقًا وانسجامًا ، وللمعنى عمقًا ملحوظًا ، ومثله في قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام وهو يشكو لربه ضعفه ، وكبر سنه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم:٤] حيث التجاور بين لفظتي (إني ، مني) وما يحدثه ذلك التجاور من حنين الضعيف المسكين الراجي في عطاء ربه.

٣. انتقاء التركيب :

يُعدُّ القرآن الكريم وهو المعجز ببيانه وفصاحته النص المرجعي الأكثر حضوراً وفاعليةً في الخطاب العربي عموماً، إذ يمثل المنهل الثر والرافد الأساس في الثقافة العربية والإسلامية، ومنه انبثقت الرؤية الدينية للوجود، والأحكام الشرعية، والخطاب الرصين بنسيجه الدلالي، وتركيبه اللغوي. اتجه الشعراء إليه لبناء علاقة تفاعلية تقوم على أكثر من آلية للتفاعل معه. ركز الشعراء والكُتَّابُ في تفاعلهم مع النص القرآني على تلك النصوص ذات الصلة بالمضامين الفكرية والعاطفية ، وتعامل الشعراء معها بوعي وإدراك إسلامي خالص.

وفي انتقاء التركيب سنرى كيف يعلمنا القرآن الكريم البنية الحية للجملة العربية للخطاب من حيث نحت العبارة ، وهندستها ، وتركيبها ، وزخرفتها لعلمنا القرآن أن جملة الخطاب الأدبي يجب أن تكون ذات بنية غير عادية ، وعلاقاتها ليست علاقات عادية إذ تتميز في طريقة صياغتها ، وأحوال بنائها فتأخذ صورًا مختلفة الطول والقصر في الجمل تتلاءم مع صياغة الجملة القرآنية .

إن القرآن الكريم يعلمنا أن تركيب البنية الحية للجملة العربية في الخطاب الأدبي المؤثر

يجب أن يكون على محورين هما :

أ. التركيب التعبيري : حيث نجد أن الجملة القرآنية تطول ، وتقصر ، وتتنوع بين الفعلية والاسمية ، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف ، والتكرار ، كما تتنوع بين الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي ، وكل ذلك يكون تبعًا لحاجة الفكرة المراد توصيلها كما في سورة الكوثر والإخلاص ، وكثير من الآيات التي تتنوع أساليبها التركيبية التعبيرية في ضوء الفكرة المراد توصيلها كما يوجد ذلك في الجملة القرآنية التي تحمل فكرة علمية ، أو هديًا إلهيًّا كما في قوله تعالى : ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان:١-٤] .

ب. التركيب التصويري : وهو تركيب تعبيري تصويري خيالي تعتمد عليه الجملة القرآنية حينما يراد التعبير بالألفاظ الموحية ، والتعبير بالصورة لأنها لا تهدف إلى مجرد الإيصال والنقل والإخبار كما في المحور الأول وإنما تهدف أيضًا إلى التأثير في المتلقي كما في تصوير الفزع والخوف والرهبة في قوله تعالى : ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾[المزَّمل:١٤] .

وتصويره عز وجل للنور الإلهي في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [النور:٣٥] .

وفي تركيب الجملة القرآنية أساليب مميزة تجعل منها ما يقوم مقام المثل من حيث القصر ، وجزالة اللفظ ، وبساطة التركيب ، وعمق المعنى كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴾ [هود:٨١] ، وقوله : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ ﴾[الرعد:١٧] .

ومنها ما يقوم على المجاز بأنواعه من التشبيهات ، والاستعارات ، والكنايات .

ولعل أهم ظاهرة تميزت بها البنية الحية للجملة القرآنية ، وجمعت الفنون التعبيرية البيانية كلها هي ظاهرة امتداد النفس الخطابي الذي تجاوزت فيه الجملة العربية حدودها المعهودة فقد شمل امتداد النفس الخطابي القرآني أساليب عديدة منها أسلوب الشرط ،

وأسلوب الاستفهام ، وأسلوب النداء ، وغيرها حيث امتداد الأسلوب ، وتكرار الجمل ، وتنوعها ، وخروجها عن النمط المألوف ليأتي مراعيًا لمقتضى الفكرة ، وإيصالها بأدق تفاصيلها إلى المتلقي ؛ حيث اتخذت الجملة مساحة طويلة بضم صيغٍ أو أجزاء مختلفة ومتنوعة تعبر حدود مصطلح الجملة إلى الخطاب ، وتكتفي الدراسة بمثال واحد لتوضيح ذلك ، وهو قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية:٢١] فظاهرة الامتداد في الاستفهام في الآيات السابقة حدثت على المستوى الدلالي ، والمستوى التركيبي ، فقد يتبادر إلى الذهن أن هناك انقطاعًا في المعنى المراد من الآيات فليس ثمة مناسبة بين (الإبل والسماء ، وبينهما وبين الجبال والأرض) بحسب الظاهر ، لكن ثمة جامع في يجمع بين دلالة هذه الآيات ، وهو قدرة الخالق وتفرده بصفة الخلق ، ويظهر تركيز الخطاب موحدًا في المستوى التركيبي إذ حافظ الاستفهام على مركزه الأصلي في قوله : (أفلا ينظرون ...؟) ثم جاء التكرار التابع لهذه الجملة الاستفهامية مع تكرار عناصر التركيب في جمله وهي : (الجار والمجرور) وأداة الحال (كيف) ، والفعل المبني للمفعول بتعدد صوره (خُلقت ، رفعت ، نصبت ، بسطت) والربط بالواو بين الجمل ، ولا يخفى ما لهذا التركيب من أثر واضح على الإيقاع الذي تآزر مع الخطاب في إثبات قدرة الخالق ، وتحدي المخلوق ، وأثره على تحديد الفاصلة القرآنية (التاء الساكنة) التي جاءت ملائمة لصيغة الخطاب المباشر الذي لا يحتمل الجدل والمناقشة .

وهكذا نجد البنية الحية للجملة القرآنية مثّلت المعين الصافي الذي ينهل منه الأدباء والشعراء في ضوء عملية التأثير والتأثر التي أوجدت صنفين من الأدباء والشعراء :صنفٌ منهم وقف مشدوهًا رغم ما كان يتمتع به من بلاغة وفصاحة فقرر ألا يقول شيئًا بعد سماع القرآن الكريم فرأى فيه البلغة التي لا يحتاج بعدها إلى غيرها ، وهذا ما كان من أمر بعض الشعراء أمثال الشاعر لبيد بن ربيعة الذي كان مشهورًا ببلاغة منطقه وفصاحة لسانه ، وقد وجده عثمان بن مظعون ينشد قريشًا قوله : ألا كل شيء ما خلا الله باطل .فقال عثمان : صدقت . فقال لبيد : وكل نعيم لا محالة زائل . فقال عثمان : كذبت ، نعيم أهل الجنة لا يزول. فقال لبيد : يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم فمتى حدث فيكم هذا ؟! وذكر ابن قتيبة أن لبيدًا لم يقل بعد إسلامه إلا بيتًا واحدًا(٢٢) :

الحمـــد لله إذ لـــم يـــأتني أجلـــي حتـــى كســـاني مـــن الإســـلام ســـربالا

وقيل إن " أحد المسلمين أخذته العزة فكتب بعض آيات الكتاب الكريم ، وعلقها إلى جوار أبيات لبيد بباب الكعبة ، ومر لبيد في اليوم التالي ، ولم يكن قد أسلم بعد ، فأذهلته الآيات القرآنية حتى أنه صرخ من فوره قائلاً : والله ما هذا بقول بشر ، وأنا من المسلمين "[٢٣].

والصنف الآخر رأى فيه فوق أنه كتاب هداية معينًا أدبيًّا يردون عليه بقدر استطاعتهم فينهلون منه ما يستطيعون من الأساليب البلاغية العالية ، وفي قرارة نفوسهم أنهم لن يصلوا إلى شيء غير الاقتداء بتلك الأساليب التعبيرية العالية التي أخذوا في التأثر بها ، وتضمينها في إبداعاتهم على مستوى المفردة ، والتركيب والتصوير جاء ذلك التأثر على صور منها :

١. تأثير بنية الجملة القرآنية في الخطابة : جاءت الآثار النثرية في صدر الإسلام متأثرة بطابع القرآن ، ويتجلى ذلك في آثار الخلفاء ، والقادة ، والولاة . فالموضوعات التي دار حولها الأدب في هذه المرحلة من صميم الحياة الاجتماعية ، والسياسية ،في المجتمع الاسلامي، كما أن الأدباء والخطباء ، والكتاب قاموا بمحاكاة التعبير القرآني والاقتباس من آياته فيما يقولون ، وقام القرآن كذلك بنقل النثر من الجمل المسجوعة المفككة إلى جمل متناسقة متطابقة ، مختارة الألفاظ ، رائعة التصوير ، منطقية العرض تنفذ من العقل والقلب إلى الصميم .

والقرآن الكريم يعلِّم الناس فن الخطابة ، ولذلك تعلّم الناس هذا الفن من القرآن الكريم يقول ابن الجوزي :الخطاب في القرآن على خمسة عشر وجها[٢٤]:

١. خطاب عام (خلقكم).
٢. وخطاب خاص (أكفرتم)
٣. وخطاب الجنس (يا أيها الناس)
٤. وخطاب النوع (يا بني آدم)
٥. وخطاب العين (يا آدم)
٦. وخطاب المدح (يا أيها الذين آمنوا)
٧. وخطاب الذم (يا أيها الذين كفروا)
٨. وخطاب الكرامة (يا أيها النبي)
٩. وخطاب التودد (قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي)

١٠. وخطاب الجمع بلفظ الواحد (يا أيها الإنسان ما غرك)

١١. وخطاب الواحد بلفظ الجمع (وإن عاقبتم)

١٢. وخطاب الواحد بلفظ الاثنين (ألقيا في جهنم)

١٣. وخطاب الاثنين بلفظ الواحد (فمن ربكما يا موسى)

١٤. وخطاب العين و المراد به الغير (فإن كنتم في شك)

١٥. وخطاب التلوين (الالتفات) وهو ثلاثة أوجه :

- **أحدها أن يخاطب ثم يخبر (حتى إذا كنتم في الفلك و جرين بهم) (وما أوتيتم من زكوة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) (وكره إليكم الكفر والفسوق و العصيان أولئك هم الراشدون)**
- **والثاني أن يخبر ثم يخاطب (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم) (وسقاهم ربهم شرابا طهورا إن هذا كان لكم جزاءا وكان سعيكم مشكورا) .**
- **والثالث أن يخاطب عينا ثم يصرف الخطاب إلى الغير (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ليؤمنوا بالله ورسوله) .**

كما وظّف الخطباء والكتاب الاقتباس من القرآن الكريم كقالب فني جاهز ضمنوه خطبهم وكتاباتهم.

ولقد سارع العرب على الاقتباس بنوره في أشعارهم وخطبهم ورسائلهم، واستمدوا منه واقتفوا آثاره، فلو تتبعنا الشعور والخطب والرسائل لوجدنا أن معانيها لا تبعد عما اشتمل عليه القرآن، وقد اعتمد الخطيب والمكاتب في الاستشهاد من القرآن الكريم، فأصبح بذلك مصدراً مهماً لدعم الخطبة والرسالة.

يقول الجاحظ : " وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع "[٢٥].

ولا يزال أدباء العرب يستقون من فيضه، وينهلون من منبعه الغزير الصافي، ما يقوم ألسنتهم، ويكفل لهم إحسان القول بدون تكلف أو تحمل أو اجتلاب للألفاظ من بعيد، نذكر منهم على سبيل المثال: طه حسين ومصطفى الرافعي وكامل الكيلاني ومحمود شاكر.

١. تأثير بنية الجملة القرآنية في الشعر : نزل القرآن الكريم على قوم أصحاب لغة راقية

وأدب رائع، وكان له الأثر في توجيه مجريات الحياة وتطور نواحيها، وكان معيناً لا ينضب للخطباء والمتكلمين، والشعراء، ورافق ذلك وجود شعراء فحول تلقوا آياته وألفاظه وتراكيبه شأنهم شأن الناس جميعاً. ما بين معارض أو موافق، معجب أو ناقم، ولكنهم في أحوالهم تلك سلباً أو إيجاباً عايشوا التنزيل وشاهدوا مجريات الأحداث على الواقع الملموس، فهل كان لهم من تأثر به؟؟ وهل كان للقرآن الكريم من أثر فيهم؟. ثم تلا هؤلاء شعراء فتحوا أعينهم على آيات تقرأ، وسور تتلى وأحكام، وعقائد استقرت في نفوس الأمة، والمجتمع. فما أثر ذلك عليهم؟ وإلى أي حد وصل ذلك التأثر؟ وما أثر القرآن الكريم على هؤلاء الشعراء؟ وأولئك الذين تلوهم في حقبتين زمنيتين متتاليتين؟ هل استلهموا أسلوبه وصيغه وأفكاره ومعانيه؟ أم أنهم حاكوها محاكاة شكلية لم تصل إلى الأعماق؟. هل ظهر عندهم ظاهرة واضحة متأثرة بالقرآن الكريم في فترة التنزيل؟ أو كانت تعويماً حول أفكار محدودة دون الخوض في أفكاره وأسلوبه ومعانيه وتراكيبه؟؟. تحاول هذه الدراسة الإجابة عن كثير من تلك التساؤلات، وتبرز دوره العظيم في الشعر وأساليبه ومعانيه ولغته، كما تحاول الإجابة عن مقدار ومدى ذلك الأثر والتأثر وطريقة الاستلهام لألفاظه وتراكيبه وصوره ومعانيه.

منذ أن استأنست الجزيرة العربية بالقرآن الكريم حيث أنعم الله تعالى على الإنسان بهذه المكرمة الخالدة و تلطّف عليها بهذا الإعجاز السّماوي استطاعت رسالته أن تستنهض المجتمع العربي و تحول مفاهيمه البالية إلى قيم ومعاني إنسانية عالية. و الشعراء في المجتمع بصفتهم أناس ذوي طبائع حساسة و أحاسيس مرهفة قد تأثروا بتعاليم القرآن بشكل ملموس و منذ نزول القرآن هناك شعراء كحسان بن ثابت و كعب بن مالك و عبد الله بن رواحة قد زيّنوا أشعارهم بآيات قرآنية منورة ، وقد انبهروا بإشعاعات الدعوة السامية و عشقوا مضامينها و اقتبسوا من القرآن صوراً و أفكاراً و استعملوها في مختلف أغراض دعوتهم للتمسك بالدين و الحفاظ عليه.

والاقتباس من القرآن الكريم من أظهر تأثر الأدب شعره ونثره بالبنية الحية للجملة القرآنية ومن ذلك(٢٦): لا تغرّنّك من الظّلمة كثرة الجيوش والأنصار "إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ".

وقول ابن سناء الملك (٢٧):

رحلوا فلست مسائلا عن دارهم أنا «باخع نفسي على آثارهم »

العبارتان اللتان بين الأقواس فى المثالين الأولين مأخوذتان من القرآن الكريم ، وقد ضمّن الكاتب أو الشاعر كلامه هذه الآثار الشريفة من غير أن يصرّح بأنها من القرآن وغرضه من هذا التضمين أن يستعير .

ولعل الاقتباس من أظهر صور تأثير البنية الحية للجملة القرآنية في الأدب شعره ونثره.

الاقتباس من القرآن شعرًا :

قال بعض الظرفاء في الاقتباس من القرآن من قصّة يوسف عليه الصلاة والسلام(٢٨):

أيهـــذا العزيـــز قـــد مســـنا الضـــرُّ جميعًـــا وأهلنـــا أشـــتاتُ

ولنـــا فـــي الرحـــال شـــيخٌ كبيـــرٌ ولـــــدينا بضـــــاعة مزجـــــاةُ

وهذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ ومن قوله تعالى:﴿ قَالُواْ يأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً ﴾ .

وقال آخر(٢٩):

خـاض العـواذل فـي حـديث مـدامعي لمّـــا رأوا كـــالبحر ســـرعة ســـيره

فحبســـته لأصـــون ســـرّ هواكـــم حتّـــى يخوضـــوا فـــي حـــديث غيـــره

وهذا اقتباس من قوله تعالى:﴿ فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يخوضوا في حديث غَيْرِهِ﴾

وقد يعمد الشاعر إلى فن بلاغي آخر فيجمعه مع الاقتباس في بيت واحد، وهذه براعة لا تتأتى إلا لمن حاز قصب السبق في هذا المضمار، ومن ذلك قول الشاعر(٣٠):

يـا نظـرة مـا جلـت لـي حسـن طلعتـه حتـى انقضـت وأدامتنـي علـى وجـل

عاتبـت إنســان عينــي مــن تسـرّعه فقـال لـي: خلـق الإنسـان مـن عجـلِ

وهنا قد جمع الشاعر الاقتباس مع التورية، فالاقتباس من قوله تعالى:﴿ خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ﴾ والتورية في لفظة(إنسان)، فالأولى تعني بؤبؤ العين، والأخرى الواردة في النص القرآني تعني آدم عليه السلام.

٢. تأثير البنية الحية للجملة القرآنية في النثر : لم يقتصر الاقتباس من القرآن الكريم على الشعر، وإنما شمل النثر أيضًا، ومنه قول الخطيب عبد الرحمن بن نباتة في وصف القيامة: "هناك يرفع الحجاب ويوضع الكتاب ويجمع من وجب له الثواب ومن

حق عليه العقاب، فيضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب "[٣١] وهذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿قِيلَ ارْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُواْ نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ .

ومن الاقتباس نثرًا قول أحدهم: " لقينا أيامًا ضحِكات وليتها أيام عابسات، فكانت كسبع سنبلات خضر وأخر يابسات"[٣٢] ، وهذا اقتباس من قوله تعالى:﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ ومنه أيضًا قول الخطيب عبد الرحمن بن نباتة في ذكر يوم القيامة[٣٣]: هناك يقع الحساب على ما أحصاه الله كتابا، وتكون الأعمال المشوبة بالنفاق سرابا، يوم يقوم الروح والملائكة صفًا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا وهذا مقتبس من قوله تعالى:﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ ومن الاقتباس نثرًا قول أحدهم: " تجمعوا في نار الندم يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا، وصار الأمر الذي كانوا يرجونه مخشيّا، وأصبحوا كأهل النار الذين صاروا أعداءً وكانوا شيعا، وقال ضعفاؤهم للذين استكبروا إنّا كنّا لكم تبعا "[٣٤] ، وهذا مقتبس من قوله تعالى :﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُواْ آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ومن قوله تعالى: ﴿ وَبَرَزُواْ للَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ .

وترى الدراسة أن البنية الحية للجملة القرآنية – بناء على كل ما سبق – أثرت في الخطاب العربي من خلال ثلاثة مرتكزات يوضحها الشكل التالي :

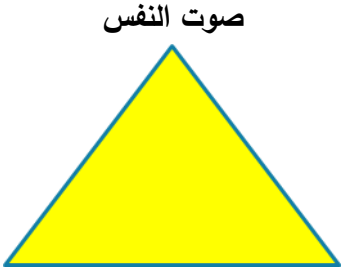

كيف تتم هذه العملية ؟

لنعتبر الإنسان يولد دائرة مغلقة لا يعلم شيئًا كما نصَّ على ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة النحل : " وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ

وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ " .

كيف يجب أن نفهم هذه الآية ؟

الإنسان لديه مكون لغوي (جهاز لغوي) يكتمل استعداده للإدراك من الشهر الرابع للطفل في بطن أمه إلا أنه مع وجود ذلك الجهاز يخرج إلى الحياة دائرة مغلقة تبدأ تتفتح بواسطة التأثير والتأثر شيئًا فشيئًا بنسب غير متفاوتة بين الناس في حياتهم العادية ، وغير متفاوتة في حياتهم الإبداعية المتفاوتة .

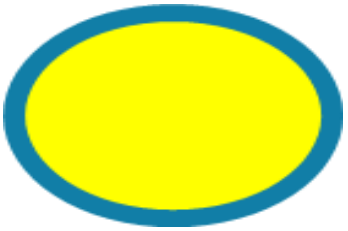

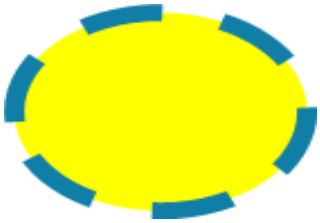

ما الذي ينفذ إلى داخل تلك الدائرة ؟

يعيش الإنسان في هذه الحياة في حالة تجاذب بين التأثير والتأثر فيلقف كل ما يدركه في محيطه عن طريق الحواس الست التي تصبُّ في عقله ونفسه كمًّا هائلاً من أحداث الحياة الحسية والمعنوية ...

يسمع ويرى ويلمس ويشم ويتذوق ويفكر.

وقد ذكر القرآن الكريم أكثر من أربع وأربعين حاسة أخرى منها :الحاسة البينية – الحاسة الشعورية – الحاسة العضلية – حاسة التوازن ...

ثم تبدأ هذه المدخلات بالتفاعل مع فكر الإنسان وحسه ومشاعره محاولة الخروج مرةً أخرى في صورة تعبيرية مادتها اللغة لتخرج عبر الجهاز الصوتي الذي ركبه الله في الإنسان وهذه

اللغة مكونة من :

أصوات لغوية ـ حروف ـ كلمات ـ مقاطع ـ نظم مركب (أسلوب)

كيف تنمّى هذه المكونات ؟

وبالطبع تنمّى هذه المكونات من خلال :

١. الاستماع .

٢. القراءة بمعناها الواسع ، والتي علمها الله تعالى لرسوله الكريم ، وأعنى بها هنا استقراء الإنسان لكل ما حوله من المؤثرات المتنوعة .

٣. التدبر والتأمل .

٤. البحث في الأسباب والعلل .

ونبقى الآن في تلك التعبيرات كيف تتلون تقريريًا أو أدبيًا ؟

تظل الكلمة المفردة هي نواة الإنتاج الكلامي سواء أكان تقريريًا على وجه الحقيقة أو أدبيًا تخييليًا .

ومن هنا تبدأ الكلمة تتلون من خلال السياق الأسلوبي لها في واحد من الأسلوبين اللغويين التاليين :

أولاً : الأسلوب الوظيفي التقريري : النقل للفكرة على وجه الحقيقة (المعنى) ، ومن السور القرآنية التي تعلمنا هذا النوع من بناء الخطاب سورة الكافرون ، وأمثالها .

ثانيًا : الأسلوب الأدبي : نقل الفكرة على وجه التصوير البياني وإعطاؤها مساحة أكبر من الخيال والتصور للمعاني (معنى المعنى) ، ومنه الآيات الكريمة المبنية على المجاز بأنواعه ، وفي الكلام الأدبي تتجاوز الكلمة معناها المعجمي إلى معاني تصويرية من خلال سياقها في النص الأدبي بقرائن لفظية ومعنوية تمنع من إيراد المعنى الحقيقي لها مما يضفي عليها جمالاً جديدًا حتى وكأنها مفردة وليدة .

وفي الأسلوبين السابقين نجد القرآن الكريم في البنية الحية للجملة القرآنية قد شحن الأساليب التعبيرية بمفرداتها بفكر جديد ، ونظرة أخرى للكون والحياة والإنسان ، امتدت من خلاله المفردة العربية ، وأسلوب الخطاب العربي بنوعيه التقريري والتصويري إلى آفاق بعيدة خارجة عن نطاق فكر الإنسان وعاطفته شملت عالمي الغيب والشهادة التي لا يعلمها إلا الله وحده ، وهذا من الأسرار التي جعلت القرآن الكريم معجزًا في مفرداته ونظمه وموضوعاته ؛ ونتيجةً لذلك توسَّعت دائرة التعبير العربي لكونه من لدن حكيم خبير بحيث أصبحت بنية

الجملة العربية من خلال القرآن الكريم تجمل طاقة كامنة ، وشحنة هائلة من خلال الأصوات الثلاثة السابقة .

ولذلك كانت اللغة العربية بما أودع الله فيها من خصائص فريدة هي اللغة المختارة التي حملت الخطاب القرآني العالي والواسع الذي لا يستطيع أن يصل إليه إنس ولا جان قال تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض ظَهِيرا ﴾ **[الإسراء:٨٨]**

وأصبحت اللغة العربية هي لغة ذلك الخطاب الذي لا تحمله لغة غيره ، حتى أنه تستحيل ترجمته لفظًا ومعنى إلى لغة أخرى .

وقد كان سحر البيان ، وروعة الخطاب ، وقوة التأثير من الأسباب التي جعلت بعض العلماء يقول بخلق القرآن ، بينما الحقيقة التي لا جدال فيها أن القرآن كلام الله ، ولكن ذلك الكلام نزل مشحونًا شحنًا هائلاً فكرًا وتعبيرًا وتصويراً مما جعل الجملة القرآنية ذات بنية حية لا تشيخ أبدًا بل تتجدد مع كل قراءة متأملة تتحسس المعاني والجمال بالعقل والعاطفة معًا .

ومن أبرز النتائج والتوصيات لهذه الدراسة :

١. **بنية الجملة القرآنية بنية حية متجددة مع كل قراءة متأملة لكتاب الله العزيز .**
٢. **البنية الحيّة للجملة العربية هي دراسة ما تضيفه البنية الإيقاعية على مستوى : الصوت المفرد والكلمة المفردة ، والتركيب من معلومات ومعارف وصور فنية جديدة من خلال مكونات الجملة العربية المتمثلة في : تخيُّرُ الأصوات ، وتخيُّرُ الألفاظ ، وتخيُّرُ التراكيب الأسلوبية .**
٣. **البنية الحية للجملة القرآنية أنموذج عالٍ يتعلم منه الأدباء والشعراء ، ويقتدون به كيف يبنون نصوصهم الإبداعية بناءً فنيًّا ذات بنية حيَّة في حروفها وكلماتها وجملها المتنوعة التراكيب والأساليب التعبيرية منذ أن يدرك الإنسان المبدع بحواسه ، ثم ما يطرأ في داخله الشعوري والفكري من تفاعلات نتيجة عملية التأثر والتأثير ورصد التحولات والتغيرات في حياته وحياة المجتمع الذي يعيش فيه باعتبار العمل الإبداعي هو الأعمق تعبيرًا عن التحول أو التغير.**
٤. **أبرزت لنا الدراسة كيف يخرج ذلك العمل الأدبي في صوت لغوي ينتظمه خيط شعوري فكري في مفردات وتراكيب ذات بنية حية يتشكّل منها النص الإبداعي شكلاً ومضمونًا**

إلى الدرجة التي يصبح معها النص الإبداعي في قالبه الفني ذا مستويات ذاتية واجتماعية وإنسانية كونية تشبه إلى حدٍّ بعيد طبقات الأرض جيولوجيًّا والتي لا بد لفهمها وتقويمها من الإحاطة بها في كليتها وشمولها وفي أجزائها وتفاصيلها .

٥. أبرزت لنا الدراسة أثر البنية الحية للجملة القرآنية في بناء الخطاب العربي نثرًا وشعرًا من الصوت إلى التركيب .

٦. أثبتت الدراسة أن بنية الجملة القرآنية الحية ترجع إلى الله العالم بخلقه ، وما ركب فيهم من قدرات وأحاسيس إضافةً إلى ما أودعه سبحانه وتعالى في اللغة العربية من قدرات وخصائص رشحتها لتكون حاملة لكلام الله تعالى عالم الغيب والشهادة .

٧. وقف العلماء والأدباء أمام معين لا ينضب ينهلون منه ويتعلمون كيف يبنون خطابًا ذا أسلوبٍ راقٍ رغم علمهم بأن النص القرآني يبقى نصًا عاليًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٨. شرع العلماء والأدباء في كشف ما يستطيعون كشفه من جوانب البنية الحية للجملة القرآنية موظفين تلك البنية بقدر الاستطاعة في قوالب مقتبسة من الآيات الكريمة زيَّنوا بها نتاجهم الأدبي نثرًا وشعرًا .

٩. رأى كثير من العلماء والأدباء أن بنية الجملة القرآنية بنيت على ثلاث مرتكزات مهمة هي : صوت النفس وصوت العقل وصوت الحس .

١٠. أظهرت الدراسة أن بنية الجملة القرآنية الحية وما تحمله من شحنات فكرية وعاطفية وفنية وتصويرية حفظت للغة العربية قوتها وبريقها ، وقبولها للتطوير والتجديد .

ولذلك توصي الدراسة بتكثيف البحث والدراسة لأساليب القرآن الكريم من أجل كشف مزيدٍ من مظاهر الإعجاز اللغوي والبلاغي في القرآن الكريم.

الهوامش

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ، ٢٢/ ٢٤٨ ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٦هـ .

(٢) خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة ، رزان محمود إبراهيم ، ط١ ،دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان – الأردن، ص: ١٧-١٨

(٣) من وظائف الصوت اللغوي لفهم نحوي وصرفي ودلالي ، أحمد كشك ، ص١٣ ، دار السلام ، مطبعة المدينة ، ١٩٨٣م

(٤) السابق ، ص : ٣٤– ٨٨ ، بتصرف .

(٥) اللغة الشاعرة، ص ١١ ، المطبعة العصرية ، بيروت ، لبنان ، (د ، ت)

(٦) انظر : إعجاز القرآن ، الرافعي ، ص ٢٢٩ ، الطبعة التاسعة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ،١٩٧٣م

(٧) التذوق والنقد الفني ، د. أحمد رفقي علي ، ص : ١٢٤ ، الطبعة الثانية ، دار المفردات ، الرياض ، ١٩٩٨م .

(٨) نثر المرجان في رسم نظم القرآن ، محمد غوث الأركاني ، ١/ ١٢ ، مطبعة عثمان يونس ، حيدر آباد ، ١٣٣٩هـ

(٩) الأصول الفنية للأدب، حسن، عبد الحميد ، ص : ٤٠ ، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٤ م.

(١٠) النكت في إعجاز القرآن للرماني ، ص : ٨٩–٩٠ ، دار المعارف، مصر ، (د.ت)

(١١) أثر القرآن في تطور النقد العربي، د. محمد زغلول سلام ، ص : ٢٤٤ ، دار المعارف، مصر ، (د.ت)

(١٢) رواه البخاري (3072) ، ومسلم ، (2824)

(١٣) المعجزة الخالدة ، حسن ضياء الدين عتر ، ص : ٧ ، الطبعة الثانية ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٩٨٩م .

(١٤) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، الرافعي ، ص : ١٧٣ ، الطبعة الأولى ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ٢٠٠٣م

(١٥) السابق ، ص : ١٧٣

(١٦) السابق ، ص : ١٧٣

(١٧) الموسوعة العربية الميسرة ، محمد شفيق غربال ، ص : ١٠٥٦ دار القلم، بيروت، (د. ت)

(١٨) النقد البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني (دراسة سيميائية) ، د. محمد سالم سعد الله ،ص: ٢٧ ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ٢٠١٣م .

(١٩) التحليل التكويني ، ودراسة المعنى في العربية ، د. إبراهيم الدسوقي عبد العزيز ، ص: ١١ ، دار غريب ، القاهرة ، ٢٠١٥م

(٢٠) البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية ، د. عزة جدوع ، ص: ٦٩ ، الطبعة الثانية ، مكتبة الرشد ، الرياض، ٢٠١٤م

(٢١) معاني القرآن وإعرابه ، للزجاج ، ٩٤/٤ ، تحقيق : د. عبد الجليل شلبي ، الطبعة الثانية ، دار الحديث ، ١٩٧٩م

(٢٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ٢٧٥/١ ، تحقيق : أحمد شاكر ، دار المعارف ، ١٩٨٢م .

(٢٣) من كتاب محمد رسول الله ، ج.ساروار ، ص:٤٨٨ ، وحيد الدين خان ، كراتشي ، (د.ت)

(٢٤) المدهش لابن الجوزي ، ص : ١٥ ، تحقيق : مروان قباني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥م

(٢٥) البيان والتبيين ، للجاحظ ، ١١٤/١ ، تحقيق : عبد السلام هارون ، الطبعة السابعة ، الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٨م

(٢٦) انظر : البلاغة الواضحة ، علي الجارم ومصطفى أمين ، ص: ٢٦٩ ، طبعة دار المعارف (د.ت)

(٢٧) البلاغة العربية ، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ٢/ ٥٣٧ ، دار القلم، دمشق ، الدار الشامية ،بيروت ،الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م .

(٢٨) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ،ص: ٢٣١ ،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف،القاهرة ، ١٩٦٥م .

(٢٩) خزانة الأدب وغاية الأرب لتقي الدين الحموي ، ٢٢٦/٢ ، دار مكتب الهلال ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م

(٣٠) الكشكول ، محمد بن حسين العاملي الهمذاني ، ٣٣٢/١، تحقيق : محمد عبد الكريم النمري ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ –١٩٩٨م

(٣١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لابن الأثير ، ص : ٣٢ ، تحقيق : أحمد الحوفي، بدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة ، (د. ت)

(٣٢) المثل السائر ، ١٢٦/١

(٣٣) المثل السائر ، ٢/ ٣٢٨

(٣٤) المثل السائر ، ٢ / ١٣٦

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- الحديث الشريف .

١. أثر القرآن في تطور النقد العربي، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف، مصر ، (د.ت)
٢. الأصول الفنية للأدب، حسن، عبد الحميد ، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٤ م .
٣. إعجاز القرآن ، الرافعي ، الطبعة التاسعة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ،١٩٧٣م .
٤. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، الرافعي ، الطبعة الأولى ، مؤسسة المختار ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .
٥. البلاغة العربية ، عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني، ، دار القلم، دمشق ، الدار الشامية ،بيروت ،الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م .
٦. البلاغة الواضحة ، علي الجارم ومصطفى أمين ، طبعة دار المعارف ، (د.ت)
٧. البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية ، د. عزة جدوع ، الطبعة الثانية ، مكتبة الرشد ، الرياض، ٢٠١٤م
٨. البيان والتبيين ، للجاحظ ، تحقيق : عبد السلام هارون ، الطبعة السابعة ، الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٨م
٩. التحليل التكويني ، ودراسة المعنى في العربية ، د. إبراهيم الدسوقي عبد العزيز ، دار غريب ، القاهرة ، ٢٠١٥م .
١٠. التذوق والنقد الفني ، د. أحمد رفقي علي ، الطبعة الثانية ، دار المفردات ، الرياض ، ١٩٩٨م .
١١. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥م .
١٢. خزانة الأدب وغاية الأرب لتقي الدين الحموي ، دار مكتب الهلال ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م
١٣. خطاب النهضة والتقدم في الرواية العربية المعاصرة ، رزان محمود إبراهيم ، الطبعة الأولى ،دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان – الأردن ، (د.ت).
١٤. الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق : أحمد شاكر ، دار المعارف ، ١٩٨٢م

١٥. الكشكول ، محمد بن حسين العاملي الهمذاني ، تحقيق : محمد عبد الكريم النمري ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ -١٩٩٨م
١٦. اللغة الشاعرة، المطبعة العصرية ، بيروت ، لبنان ، (د ، ت)
١٧. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، لابن الأثير ، تحقيق : أحمد الحوفي، بدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة ، (د. ت)
١٨. محمد رسول الله ، ج.ساروار ، وحيد الدين خان ، كراتشي ، (د.ت)
١٩. المدهش لابن الجوزي ، تحقيق : مروان قباني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٥م
٢٠. معاني القرآن وإعرابه ، للزجاج ، تحقيق : د. عبد الجليل شلبي ، الطبعة الثانية ، دار الحديث ، ١٩٧٩م
٢١. المعجزة الخالدة ، حسن ضياء الدين عتر ، الطبعة الثانية ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٩٨٩م .
٢٢. من وظائف الصوت اللغوي لفهم نحوي وصرفي ودلالي ، أحمد كشك ، دار السلام ، مطبعة المدينة ، ١٩٨٣م
٢٣. الموسوعة العربية الميسرة ، محمد شفيق غربال ، دار القلم ، بيروت ، (د. ت) .
٢٤. نثر المرجان في رسم نظم القرآن ، محمد غوث الأركاني ، مطبعة عثمان يونس ، حيدر آباد ، ١٣٣٩هـ
٢٥. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٦هـ .
٢٦. النقد البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني (دراسة سيميائية) ، د. محمد سالم سعد الله ، عالم الكتب الحديث ، إربد ، الأردن ، ٢٠١٣م .
٢٧. النكت في إعجاز القرآن للرماني ، دار المعارف، مصر ، (د.ت) .

The Living Structure of the Quranic Sentence and its Impact on Making Literary Discourse: An Analytical Descriptive Study.

Dr. Mohammed Abdullah Hussain Alshadwi
Associate Professor of Arabic and Rhetoric at Albaha University
Department of the Arabic language
Almakhwah College of Sciences and Arts

The living structure of the Arabic sentence means the study here what the rhythmic structure adds on the level: the singular voice, the particular word, and the composition of new information, knowledge and artistic images through the components of the Arabic sentence represented by choice of sounds, the choice of words, and the choice of stylistic structures.

As the Noble Quran is one of the highest ranks of high discourse, the study saw that the living structure of the Quranic sentence is a high model from which writers and poets learn. Moreover, they emulate how to build their creative texts artistically with a living structure in its letters, words, sentences, various structures and expressive styles since the creative person perceives with his senses. Then what occurs within his emotional and intellectual interactions as a result of the process of impacting and influencing. Transformations and changes monitor in his life and the life of the society in which he lives, considering that the creative work is the most profound expression of the transformation or change. Furthermore, how that literary work comes out in a linguistic voice organised by an emotional thread of thought in the vocabulary and structures that have a living structure from which the creative text is formed in form and content to the extent that the creative text in its artistic form becomes of personal, social and universal human levels that are very similar to the layers of the earth geologically. They must be understood and evaluated by surrounding them in their entirety as well as their parts and details. The Holy Quran is suitable, who teaches us that.

Keywords: rhythmic structure , Quran, Noble Quran.